حوليات آداب عين شمس المجلد ٤٦ (عدد يناير – مارس ٢٠١٨)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

السنن التاريخية في القرآن الكريم سورة الحج أنموذجا

داود سلمان خلف الزبيدي *

جامعة بغداد – كلية التربية – ابن رشد – قسم التاريخ

المستخلص

أثرى القرآن الكريم الفكر الاسلامي من خلال ما تضمنه من إحاطة كليـــة للكـــون والإنسان تجسدت في اطروحة كون الجزئيات مرتبطة ببعضها ارتباطاً ضمن نظام محدد بسنن فهي تمثل قوانين كونية دقيقة مؤطرة بنظام إلهي محكم، وهذا مما مثل دعوة للتفكير واستنطاق القرآن الكريم لدراسة سننه الكونية والتاريخية وفهمها في ضوء تأكيـــده علـــى الوحدانية، ووحدة الرسالات في انتمائها واهدافها، وكل الاشارات والقصص القرآني ترمي إلى غاية تعنى بالإنسان وتحدد مسارات سلوكه بقراراته الذاتية.

احتوت السور القرآنية كثيراً من الدلالات على ما تقدم ومن تلك السور سورة الحج التي تحتوي على كثير من الآيات الكريمة التـــي تـــدعو للتفكـــر فـــي الخلـــق والبعـــث والاستخلاف بما يمنح العقل البشري مساحة كافية لاستنباط قوانينه من تلك الايات ومـــن هنا جاء هذا البحث .

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠١٧.

تمهيد

حاول الفلاسفة الاقدمون والمحدثون والمعاصرون صياغة نظريات وضعية لوضع الحلول لمشاكل الانسان ، إلا أن استمرار المعاناة والتنازع بين الأمم والجماعات دينياً ، وفكرياً ، وسياسياً ، واقتصاديا يدلل بما لا يقبل الشك أن تلك النظريات عجزت عن إيجاد الحلول المناسبة لها ، يتساءل جوستاف لوبون قائلا :

" هل من الممكن أنْ يُفرض وجود أمة مجردة من معتقدات دينية ؟ لم يعرف العالم أمةً من هذا النوع بعد ، ولن يُرى مثل هذه الأمة على ما يحتمل ؛ فالاحتياج الوجودي إلى دين موجه ومثبت أمر لا تبديل له "[١] .

إنه يطرح هذا التساؤل ويجيب عليه ضمناً ، بعد أنّ عرض للفلسفات الوضعية واستنتاجه أنها لم تقدم الحلول الناجحة لحياة أفضل للإنسانية ، لقد اعتقد أن الدين موجه ومسيطر على سلوك الانسان بصفة عامة على تعدد انتماءاته وثقافاته ؛ لذا فهو يصل إلى أن الدين يمثل ضابطا اجتماعيا مهما في حياة الانسان والمجتمع .

السؤال الذي نفترضه و نحاول الاجابة عليه هنا هو :

هل تمثل السنن القرآنية فيما يخص الانسان حلاً ؟

إنَّ القرآن الكريم كان وما زال يثري الفكر الاسلامي خاصةً ، والانساني عامة بما تضمنه من إحاطة كليه للكون والانسان ، تجسدت في أطروحة كون الجزيئات مرتبطة بعضها ببعض إرتباطاً ضمن نظام محدد بسنن وقوانين تمثل نواميس كونية دقيقة مؤطرة بنظام مركزي ؛ مما شكل ويشكل دعوة للتفكير وللاستنباط ؛ فضلاً عن ذلك فإن تأكيد القرآن الوحدانية ووحدة الرسالات في انتمائها وأهدافها وكل الإشارات والقصص القرآني كل ذلك يرمي إلى غاية تهتم بالإنسان وتحدد سلوكه .

وفي هذا الاتجاه يقول عبد العزيز الدوري : إن الاسلام دين يعتبر التاريخ أساساً في عقيدته ، ويعرض فلسفة تضع نظماً وقوانين لسير الانسان وسعادته والمجتمعات وتطوراتها ... هذا فضلاً عن تأكيده علاقة القرآن بما في الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام ، وإن الاسلام والرسول يتبعان ملة إبراهيم حنيفاً مسلماً ، ويحث المسلمين إلى عاقبة من كان قبلهم من الأمم وما آلت إليه مصائرهم [٢] .

فضلاً عن ذلك فإن " الإنسانية تجد في القرآن قواعد سلوكها ، وفي الصلاة الاتحاد الشخصي بالله وبالتالي فإن تنزيل القرآن يشكل إنعطافاً في التأريخ " [٣] .

إن اعتبار نزول القرآن الكريم منعطفاً تاريخياً لأنه تضمن سنناً تُحدد سلوك الإنسان فضلاً عن رفض القرآن الكريم لوجود واسطة بين الله تعالى والإنسان من خلال ممارسة عبادية يومية من طقوس المسلمين ألا وهي الصلاة ، يمثل اعترافاً من الآخر الديني بأهمية القرآن الكريم كمنهج مهم لتنظيم حياة الإنسان سلوكيا فضلاً عن كونه كتاباً عقائدياً مقدساً .

ان الاسلام ينظر إلى الحياة كونها منهج حسب قوانين الطبيعة التي سنها الله لخلقه وما عمله الاسمى سوى التوفيق التام بين الوجهتين الروحية والمادية في الحياة الانسانية [٤] .

إن القرآن الكريم " كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. هو القول الفصل في كل ما يريده الله وما لا يريده ، وهو الحقيقة الفاصلة الحاسمة التي لا يرقى اليها الشك " [٥] .

فضلاً عن ذلك فإن القرآن الكريم يمثل " مجموعة القوانين الموضوعية الناظمة للوجود والظواهر الطبيعية والأحداث الإنسانية " [٦] .

نعم إن القرآن الكريم لم يكن كتاباً تاريخياً او كتاباً ممنهجاً باتجاه محدد من اتجاهات المعرفة ... انه كتاب سماوي مقدس على من يستنطقه اكتشاف كثيرٍ من السنن الكونية والتاريخية التي تعالج مشكلات الإنسان .

" ... هذه النظريات التي تزعم أنها جاءت بتحديد دقيق لماهية المشكلة التي يمثلها الانسان ، ويعاني منها وجوبا ، إن واحدتها تستبعد الأخرى استبعاداً يمليه عليها الأنموذج النظري المعرفي الذي انطلقت بموجبه في رحلة بحثها النظري في الظاهرة الإنسانية "(٧) ولسنا في موضع الاتفاق تماماً مع ما يذهب اليه برنارد لويس من أنَّ " للتاريخ الإسلامي بالنسبة للمسلمين أهمية دينية شرعية كذلك ؛ لأنه يعكس تحقيق مشيئة الله بأمته التي تقبلت تعاليم الإسلام وأطاعت الشريعة "(٨) .

إذ أنَّ القرآن لم يطرح تاريخ الإنسان للإفادة الشرعية فحسب ؛ بل إنه "يجعل دراسة التاريخ ، والاعتبار بالسنن الربانية في الحياة البشرية فارقاً بين أولي الوعي والبصيرة ، والغافلين الذين لهم أعين لا يبصرون بها ، وآذان لا يسمعون بها ، وقلوب لا يفقهون بها ... لذلك لابد من دراسة مستوعِبة للسنن الربانية ، ولا بد من دراسة التاريخ من خلال تلك السنن " (٩)

السنن التاريخية في القرآن الكريم

إن التشريعات الدينية جاءت لتستجيب للحاجات الفطرية المتجذرة في تكوين الإنسان وبنيتهِ الروحية والجسدية وبهذا المعنى يمتلك الدين ثباتاً وديمومة فهو وحسب اصطلاح القرآن يشمل كل أبناء البشر في كل زمانٍ ومكان (١٠) .

إن عجز الإنسان عن معالجة مشكلاته دعاهُ إلى التشبث بالسماء والابتعاد عن الرموز البشرية التي تلاعبت به على مر التاريخ وجعلته وسيلة لتحقيق غاياتها ، على العكس من الإرادة الربانية التي استخلفت الإنسان في الأرض لإعمارها (١١) .

إلى جانب المكانة التي يجب الاعتراف بها للقران وللواقعة القرآنية في الفكر الاسلامي والثقافة الاسلامية يجدر بنا أنْ ندّخر عناية فائقة لكل ما يدين به الاحساس الفردي والجماعي لرسالة تعتبر أنها تمثل الإرادة الإلهية (١٢)

فضلاً عما تقدم فإن الإسلام كديانة يؤكد على التوحيد الخالص والإقرار بالعبودية للإله الواحد دون سواه وهذا بحد ذاته يمثل سنة قرآنية تخلص الإنسان من عبودية أخيه الإنسان .

قال تعالى : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿ ١ ﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿ ٢ ﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿ ٣ ﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿ ٤ ﴾ (١٣)

إن الاقرار بديانة التوحيد يمثل الحل الأمثل للخلاص من الآلهة البشرية التي استعبدت البشر واستغلتهم ، إذ إن الإيمان بالإله الواحد يمنح الإنسان حريته لأنه يؤمن بأن إلهه الواحد هو الذي فطر الخلق وله تعود كل النواميس التي تسير الكون وتتحكم به ، لذا فاذا كان المفكر المسيحي اليوم يعاني من فشل النظريات الوضعية ، وعدم قدرتها على وضع الحلول لاسيما إن كان قد سوق لتلك النظريات أممياً وحاول فرضها على الأمم الأخرى طوال أكثر من قرنين من الزمان ؛ لذا نجد أن إعادة الكتابة عن ألسنن التاريخية في القرآن الكريم وإعادة التذكير بما كتبه كثير من الفلاسفة المسلمين قديما وحديثا ، وكما سيمر بيانه خلال اقتباس بعض النصوص يمثل حاجة إنسانية ملحة لبيان دور الديانة الإسلامية والأطروحة الإسلامية والقرآنية والمفكر المسلم في المساهمة في البناء الحضاري الانساني من خلال اعتماد منطلقاته الفكرية الخالصة ومن دون شوائب

بالاعتماد على الأصل الإسلامي (القرآن الكريم) أساسا لاستنباط القوانين لوضع الحلول للازمة التي تعاني منها الانسانية مجتمعة هذا اليوم .

لم يكن المنظور الديني لحركة التاريخ متناقضا كليا مع الأطروحات الوضعية للتأصيل للتاريخ ، إذ أن القول بأن التاريخ يبدأ بوجود الانسان على الارض وكل ما يتعلق به حتى يوم الحشر لا يختلف مع النظريات الوضعية التي تبحث عن حركة التاريخ إلا في المحركات والمؤثرات ، فإذا كان الله تعالى هو الفاعل والمحرك للأحداث على وفق المعتقد الديني فإن الفلسفات الوضعية تختلف في ذلك ويذهب بعض الباحثين إلى وجود محركات مادية واقتصادية ونفسية وجغرافية وأخلاقية وغيرها من المحركات .

إن المتتبع لأطروحة السماء من خلال استنطاق السور والآيات القرآنية فيما يخص الثابت القرآني يجد أن السنن المعروضة من خلال الآيات المحكمة ومن خلال القصص القرآني وكثير من الإشارات تعالج كثير بما تناولته النظريات في جزئياتها واعتقاداتها إن المشكلات البشرية كانت نتيجة لعامل محدد وليس لمجموعة عوامل كما هي الحال في النظرية المادية مثلا التي تؤكد أهمية العامل الاقتصادي من دون غيره .

إنَّ القرآن الكريم كان قد وجه نحو استنطاق آياته لدراسة وفهم قوانينه وأصل لذلك فيما يخص علاقة الانسان بخالقه عن علاقته مع مجتمعه وبيئته ومن ثم استخلاص قوانين وضعية إستنادا إلى تلك القوانين السماوية .

قال تعالى :

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٤)

قال تعالى :

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ) (١٥).

قال تعالى :

(تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ) (١٦) .

قال تعالى :

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) (١٧)

قال تعالى :

(فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (١٨)

وكما هي الحال في إفادة المؤرخ الغربي الحديث والمعاصر من كتبه المقدسة فأن المؤرخ المسلم قد أفاد من القرآن الكريم وفي ذلك فقد حفلت كثيرٌ من مقدمات المؤرخين المسلمين لمؤلفاتهم التاريخية والعلمية بوافر من العبارات التي توضح ماهية التاريخ وأهميته وبيان اهمية الطرح القرآني لدور الانسان على الارض وعلاقته مع خالقه والآخر الذي يعيش معه .

ومما يقدم به المسعودي المتوفى (٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) لكتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر قوله :

" وكان ما دعاني إلى تأليف كتابي هذا في التاريخ ، وأخبار العالم ، وما مضى في أكناف الزمان من أخبار الانبياء والملوك وسيرها والأمم ومساكنها محبه احتذاء الشاكلة التي قصدها العلماء وقفاها الحكماء ، وأن يبقى للعالم ذكراً محموداً وعلما منظوما عتيدا "[١٩] وهو في ذلك يجسد فهمه لدعوة القرآن الكريم للعظة والتدبر والإفادة من الماضي .

اماإبن مسكويه المتوفى ٤٢١ هـ / ١٠٣٠م) فيقول :

" وإني ولما تصفحت أخبار الأمم ، وسير ملوكها ، وقرأت أخبار البلدان ، وكتب التواريخ ، وجدت فيها ما يستفاد منه تجربة لا تزال يتكرر مثلها وينتظر حدوث شبهها وشكلها : كذكر مبادئ الدول ، ونشوء الممالك ، وذكر دخول الخلل فيها بعد ذلك ، وتلافي من تلافاه وتداركه إلى أن عاد إلى احسن حال وإغفال من أغفله واطرحه إلى أن تأدى إلى الاضمحلال والزوال ، وذكر ما يتصل بذلك من السياسات في عمارة البلدان ، وجمع كلمة الرعية ، واصلاح نيات الجند ، والحروب ومكائد الرجال ... ورأيت هذا الضرب من الأحداث ، إذا عُرفَ له مثال ما تقدم ، وتجربة لمن سلف ، فاتخذ إماماً يقتدى به ، حذر ما ابتلي به قوم ، وتمسك بهما سعد به قوم فإن أمور الدنيا متشابه ، وأحوالنا متناسبة ، وصار جميع ما يحفظه الإنسان من هذا الضرب كأنه تجارب له وقد دفع إليها واحتنك بها ، وكأنه قد عاش ذلك الزمان كله ، وباشر تلك الأحوال بنفسه ، واستقبل أموره استقبال الخبر وعرفها قبل وقوعها ، فجعلها نصب عينيه وقباله لحظه . فأعد لها أقرانها وقابلها بأشكالها . وشتان بين من كان بهذه الصورة وبين من كان غِرا غُمرا لا يتبين الأمر إلا بعد وقوعه ولا يلاحظه إلا بعين الغريب منه يحيره كل خطب يستقبله ، ويدهشه كل أمر يتجدد له " [٢٠] .

اما ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٦م) فيقول:

" اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم . والملوك في دولهم وسياستهم. حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا " [٢١]

إنَّ توثيق النصوص في اعلاه وإن أسهبنا في الاقتباس إلا أن للضرورة أحكاماً إذ يجد المتمعن في القراءة والتحليل أن الهدف من تدوين التاريخ عند المسلمين لم يكن مجرد سرد للحوادث والوقائع فحسب ؛ بل هو توثيق وقراءة متدبرة واعية ومعالجات آنية ومستقبلية لمشكلات البشرية من خلال استلهام السنن التاريخية على العكس مما يروج له بعض من المستشرقين الذين درسوا تاريخ القرآن وأفاضوا في قراءة ما تشابه مبتعدين عن دراسة سننه ونواميسه ومدى استفادة المؤرخ والفيلسوف الاسلامي منها ، إذ أن قراءة متمعنة لما كتبه هؤلاء توضح بما لا يقبل الشك موقفهم الذي يحاول الإساءة إلى القرآن الكريم [٢٢] .

إن الاطروحة القرآنية تدعو فيما تدعو إليه إلى الايمان بالإله الواحد الأحد وأن الانسان خليفة الله وعليه إعمار الأرض والإفادة من خيراتها لتحقيق المنافع الخاصة والعامة من خلال الافادة من القصص القرآني ودراسة تجارب الماضين لبناء حاضر الإنسان ومستقبله .

إن القرآن الكريم حث الانسان على الإفادة من دراسة الإشارات الكثيرة إلى الأمم الغابرة والأقوام والقبائل البائدة وما مر بها لاتخاذ القرارات الصحيحة لتحديد مساراته في حاضره ومستقبله.

وقد أجمل من كتب في قصص الأنبياء من علماء المسلمين الحكمة من إيراد تلك القصص في القرآن الكريم بأمور عدة منها : بيان الأسوة والقدوة ، ومنها إحياء ذكر الأنبياء والملوك وذكر آثارهم للموعظة والاعتبار وعدم الوقوع فيما وقعوا فيه [٢٣] .

" امتاز قصص القرآن الكريم بسمو غاياته ، وشريف مقاصده ، وعلو مراميه ؛ اشتمل على فصول في الاخلاق مما يهذب النفوس ويجمل الطباع وينشر الحكمة ، والآداب ، وطرق في التربية والتهذيب شتى ، تساق احيانا مسار الحوار ، وطورا مسلك الحكمة والاعتبار ، وتارة مذهب التخويف والإنذار ، كما حوى كثيراً من تاريخ الرسل مع أقوامهم والشعوب وحكامهم وشرح أخبار قوم هدوا فمكن الله لهم في الأرض وأقوام ضلوا فساءت حالهم وخربت ديارهم ، ووقع عليهم العذاب والنكال ، يضرب بسيرهم المثل ، ويدعوا الناس إلى العضة والتدبر " [٢٤] .

يؤكد النص أعلاه ما ذهبنا إليه فيما تقدم من بيان أهمية القصص القرآني ؛ إذ من خلاله تتضح لنا سنن الله تعالى في البلاد والعباد وبما أن الاسلام آخر الديانات السماوية فإن وجوب التدبر والتفكر والإفادة من تلك القصص تمثل أهمية بالغة للمسلمين .

فضلا عن ما تقدم فأن :

" الاسلام منذ الوهلة الاولى لا يعتبر الانسان مجرد كائن حي ، بل يضعه في منزلة رفيعة هي خلافة الله على الارض "[٢٥]

قال تعالى :

" وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ " [٢٦]

إن الحياة الدنيا والحياة الآخرة تتداخل في شريعة الله سبحانه وتعالى ومن خلال الاعتبار بذلك يتصل الايمان بالأخلاق وهي هنا سُنة ربانية تُسعد بها البشرية ويزدهر بها المجتمع [٢٧].

وبما أن " التاريخ ليس الا تلك الصلة الدنيوية بين البداية والنهاية "[٢٨] ، فإن وجود الانسان منذ هبوط آدم عليه السلام حتى يبعث الله الارض ومن عليها يمثل محور دراسة التاريخ عند المفكر الإسلامي ؛ لذا فأن وجود الانسان على الارض ومعالجه مشاكله تمثل واجبا انسانيا وشرعيا لدى المفكر الإسلامي .

قال تعالى :

" أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ " [٢٩] .

قال تعالى :

" اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ "[٣٠]

قال تعالى :

" وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " [٣١]

قال تعالى :

" إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ " [٣٢] .

إن قراءة متمعنة لما تضمنته الآيات الكريمة أعلاه نجد أن الله سبحانه وتعالى قد سخر ما في الأرض والبحر لخدمة الإنسان الذي استخلفهُ في الأرض فالأخير مسؤولٌ أمام الله تعالى عن إدارة شؤونه فيما استخلف فيه بالعدل والإنصاف لتحقيق السعادة الدنيوية

إن المتتبع للسنن التاريخية في سورة الحج يجد أن بها إشارات قرآنية لقوانين وضوابط تتحرك على مساحة السور القرآنية مجتمعة . فهي تتحدث عن الخلق ، والبعث في إشارة للتفسير الديني لحركة التاريخ ، ذلك التفسير الذي يلتقي في الاسلام مع الديانات السماوات السابقة له وهو ثابت قرآني ، إلا إن المتغير فيه هو استخلاف الإنسان على الأرض وربط ولادته ونموه بنمو ما ينتج على الأرض بعد نزول الغيث في سنة كونية تتداخل فيها قدرة الخالق في سريان سننه على الكون(الطبيعة) والانسان .

قال تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣)

" لقد عانت جميع الموجودات منذ ظهور الحياة على وجه الارض سنة الولادة والنمو والانحطاط والموت ، وتعاني الحضارات هذه السنة ايضا "(٣٤)

ولسنا هنا في موضع تحميل الآية معان باطنية ؛ إذ ان ظاهرها يؤكد على ربط مخلوقاته البشرية والحيوانية والنباتية بسنة كونية تؤكد قوانين الحياة والموت وتداخل تلك القوانين في تناولها حياة مخلوقات الله والحضارات الانسانية .

ومن أهم ما نحتاجه في عصرنا اليوم هو العيش المشترك وكم ناضل الانسان للوصول إلى تفاهمات تؤمن له ذلك ، إن الوحدانية لله تعالى وتعدد المناسك ومنها شعيرة الحج عند المسلمين ما هي إلا مناهج متعددة تؤدي إلى الإقرار بالعبودية للإله الواحد الأحد وليس للإنسان .

قال تعالى :

" وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ " (٣٥) .

ويصر المنهج القرآني على تأكيد ذلك بآية اخرى وفي ذات السورة إذ قال تعالى :

" لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ۚ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ " (٣٦)

فضلاً عن تعدد مناهج العبادة وطرق الوصول الى الله تعالى فإن السنن التاريخية فب القرآن الكريم تدعوا وتوضح وبما لا يقبل الشك الابتعاد عن التنازع والتخاصم فيما بين الديانات والأمم ، قال تعالى :

" اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ " (٣٧)

وفي آية كريمة اخرى يبين الله تعالى دور الرسل والانبياء وحامل القرآن الكريم النبي محمد صلى الله عليه وآله بكونهم بُعثوا منذرين فضلاً عن دورهم الرسالي بقوله تعالى:

" قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ " (٣٨)

قال تعالى :

" الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ " (٣٩)

إنَّ الخطاب القرآني مباشر وواضح في اشارته إلى اماكن عبادة اتباع الديانات السماوية ان الاصل في القرآن الكريم هو العيش المشترك ، ان الذين ينصرهم الله تعالى هم :

" الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ " (٤٠)

فضلاً عن ذلك مخاطبة العقل الانساني للتدبر في شؤونه كافه من خلال استنطاق القرآن الكريم والافادة من اشاراته .

قال تعالى :

" أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ " (٤١)

ان العقاب الالهي للأمم الظالمة لم يأت الا بعد مخاطبة العقل ودعوته للتدبر والتفكر والوعي من خلال المشاهدة والاستذكار والفهم لكل ما ورد من اشارات ربانية تناولتها السور والآيات القرآنية الكريمة .

قال تعالى :

" وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ " (٤٢)

الخاتمة

مما تقدم نجد أنَّ تفسير الاحداث التاريخية بوصفها أحداث متراكمة تفسر على أساس القضاء والقدر فقط ، لم يكن منهجا اسلامياً إذ ان القرآن الكريم جاء بخلاف ذلك ؛ إنه ينبه العقل إلى أنَّ الساحة التاريخية شأنها شأن الساحات الأخرى لها سننها وقوانينها ، وإنه لكي يستطيع الانسان أن يكون فاعلاً مؤثرا لا بد له من اكتشاف تلك السنن والتعرف على قوانينها لكي يتحكم هو فيها وإلا فأنها هي التي ستتحكم فيه . وقد اشتملت سورة الحج على الكثير من الآيات القرآنية التي مثلت سنناً تاريخية مؤطرة بمنظورٍ ديني تحدد للإنسان منهجاً للارتقاء وبناء مجتمعه بناءً يقوم على أساس الاعتبار والإفادة من عرض القرآن الكريم لا حلّ بالأمم السابقة ، وهذا ما تنبه له نخبه من مفكري الاسلام امثال الفارابي (ت٣٣٩ / ٩٥٠م) ، والمسعودي ، ومسكويه ، وصولاً إلى ابن خلدون .

Abstract

Historical Traditions in the Glorious Quran (Al-Haj, Pilgrimage, Sura)

By Dawud Khalif Al-Zubeidi

For surety, the Glorious Quran ploughs much into the Islamic mind as it dominates the whole universe and man incarnated in the theory. All the ingredients run into each other concomitantly and in a system designating traditions , universe specific rules , pertinent to precise divine system. As such it calla heed to think and fathom the Glorious Quran scrutinizing the universe and historical traditions that certify oneness and the unity of the

messages in the orbit of fidelity and missions : the precursors and the Quranic narratives target man and shepherd his behavior and own decisions.

The Quranic suras cuddle much of signs mentioned previously; Al-Haj sura surges as one of these for having many an Ayat stimulating the acts creation, resurrection and ascending to grant the human mind a sufficient purview and induct the rules from such Ayats, which is the heart of the current study.

الهوامش

١. جوستاف لوبون : فلسفة التاريخ ، ترجمة عادل زعيتر ،دار العالم العربي (القاهرة ٢٠١٢ م) ص٨٧ .
٢. ينظر : عبد العزيز الدوري وآخرون : تفسير التاريخ ، مطبعة الارشاد (بغداد د. ت) ص ٩ .
٣. ويد جيري : المذاهب الكبرى في التاريخ من كونفوشيوس إلى توينبي ، ترجمة ذوقان قرطوط ، دار العلم (بيروت ١٩٧٢ م) ص ١٣١ .
٤. ينظر : محمد اسد : الاسلام على مفترق الطرق ، ترجمة ، عمر فروخ ، دار العلم للملايين ط٩ (بيروت ١٩٧٧م) ص ٢٢ .
٥. محمد حسين فضل الله : الحوار في القرآن الكريم ، دار الملاك ط٢ (بيروت ٢٠٠١ م) ص ٤٣ .
٦. محمد شحرور : الكتاب والقرآن رؤية جديدة ، دار الساقي (بيروت ٢٠١١م) ص ٦٥
٧. جمال نصار حسين :الخطاب القرآني المعاصر ، دار الاسراء (عمان ٢٠٠٢ م) ص٥٦
٨. برنارد لويس : أزمة الاسلام المعاصر ، ترجمة ، حازم مالك محسن ، دار صفحات (دمشق ٢٠١٣ م) ، ص ٣٢
٩. بلاشير : القرآن، نزوله ، تدوينه ، ترجمته وتأثيره ، ترجمة رضا سعادة ، دار الكتاب اللبناني (بيروت د . ت) ص ١٥٨ .
١٠. ينظر : مجموعة من الباحثين : الدين في التصورات الإسلامية المسيحية ، دار المعارف الحكمية ، بيروت ٢٠١٠ ، ص ١٥ .
١١. ينظر : عبد الكريم زيدان : السنن الالهية في الأمم والجماعات والافراد والشريعة الاسلامية ، دار احسان (طهران ١٩٩٣م) ص١٤
١٢. ينظر : جوستاف لوبون : فلسفة التاريخ ص ١٥٨
١٣. سورة الاخلاص ، الاية ١-٤ .
١٤. سورة يوسف ،الاية ١١١
١٥. سورة غافر ، الاية ٢١
١٦. سورة الاعراف ، الاية ١٠١
١٧. سورة النحل ، الآية ٣٦ .
١٨. سورة الحج ، الاية ٤٥-٤٦ .
١٩. المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧ م) : مروج الذهب ومعادن الجوهر، مراجعة يوسف اسعد داغر، دار الاندلس (بيروت ١٩٩٦م)ج٢ ص ٢٠.
٢٠. ابن مسكويه ، احمد بن محمد (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠ م) :تجارب الأمم ، تحقيق ابو القاسم امامي ،دار سروش ، ط٢ (طهران ٢٠٠١م) ج١ ص٤٧-٤٩ .
٢١. ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦ م) : المقدمة ،دار العودة ،(بيروت د . ت) ص ٧
٢٢. ينظر : اجنتس جولد تسهر : مذاهب التفسير الاسلامي ، ترجمه ، عبد الحليم النجار ، مكتبة الخانجي ومكتبة المثنى (مصر ، بغداد ١٩٥٥ م) كل الكتاب ؛ تيودور نولدكه : تاريخ القرآن ،

ترجمة جورج ثامر وآخرين ،منشورات الجمل (المانيا ،بغداد ٢٠٠٨م) كل الكتاب ؛بلا شير : القرآن ، كل الكتاب .

٢٣. ينظر : أبو اسحاق أحمد بن محمد الثعلبي (ت ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥م) : قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس ، دار الكتب العلمية (بيروت ٢٠٠٦) ص ٥ – ٦ ؛ الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٦٣ هـ /٩٧٤ م) : تاريخ الأنبياء ، تحقيق : آسيا كليبان ، دار الكتب العلمية (بيروت ٢٠٠٦) كل الكتاب ؛ ابن كثير ، أبو الفدا اسماعيل (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢ م) : قصص الأنبياء تحقيق : عبد الرحيم بن حسن الخليفي ، دار المعارف (بيروت ٢٠٠٩) ص ١٧ – ٢٠ .

٢٤. علي محمد البجاوي واخرون : قصص القرآن ، المكتبة العصرية (بيروت ٢٠٠٧م) ص ٥ .

٢٥. عبد الحميد صديقي :تفسير التاريخ ، ترجمة كاظم الجوادي ، دار القلم ،ط ٤ (الكويت ١٩٨٠ م) ص١٣٢

٢٦. سورة البقرة ، الاية ٣٠

٢٧. ينظر : عبد العزيز الدوري وآخرون : تفسير التاريخ ص ١٨ – ١٩ .

٢٨. عزيز العظمة : الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية ، دار الطليعة (بيروت ١٩٨٣ م) ص١١٠

٢٩. سورة الحج ، الاية ٦٥

٣٠. سورة الجاثية ، الاية ١٢

٣١. سورة الجاثية ، الاية ١٣

٣٢. سورة البقرة ، الاية ١٦٤

٣٣. سورة الحج ، الاية ٥–٦ ، للتفسير ينظر :ابن كثير، عماد الدين ابو الفدا اسماعيل (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) تفسير القرآن العظيم ، تحقيق محمد ناصر الدين الالباني ، مكتبة الصفا (القاهرة ٢٠٠٢ م).

٣٤. جوستاف لوبون : فلسفة التاريخ ص ١٥٣

٣٥. سورة الحج ، الاية ٣٤ ، للتفسير ينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ج٥ ص٢٤٦– ٢٤٧

٣٦. سورة الحج ،الاية ٦٧ ، للتفسير ينظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج٥ ص ٢٦١

٣٧. سورة الحج ،الاية ٦٩ للتفسير ينظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج٥ ص٢٦١

٣٨. سورة الحج ،الاية ٤٩ للتفسير ينظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج٥ ص٢٥٥

٣٩. سورة الحج ، الاية ٤٠ ، للتفسير ينظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج٥ ص ٢٥١–٢٥٢

٤٠. سورة الحج ،الاية ٤١ ، للتفسير ينظر:ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ج٥ ص ٢٥٣

٤١. سورة الحج ،الاية ٤٦ ، للتفسير ينظر:ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج٥ ص ٢٥٣

٤٢. سورة الحج ،الاية ٤٨ ، للتفسير ينظر :ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ج٥ ص٢٥٤–٢٥٥

قائمة المراجع

المراجع الأولية :

- القرآن الكريم
- أبو اسحاق أحمد بن محمد الثعلبي (ت ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥م) : قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس ، دار الكتب العلمية (بيروت ٢٠٠٦)
- الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٦٣ هـ /٩٧٤ م) : تاريخ الأنبياء ، تحقيق : آسيا كليبان ، دار الكتب العلمية (بيروت ٢٠٠٦)
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨ هـ/١٤٠٦م) :

المقدمة ، دار العودة ، (بيروت د. ت)

- ابن كثير ، عماد الدين ابو الفدا اسماعيل (ت ٧٧٤ هـ/١٣٧٢م) :

تفسير القرآن العظيم ، تحقيق محمد ناصر الدين الالباني ، مكتبة الصفا (بيروت ٢٠٠٢ م)

قصص الأنبياء تحقيق : عبد الرحيم بن حسن الخليفي ، دار المعارف (بيروت ٢٠٠٩)

- المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ/٩٥٧م):

مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مراجعة يوسف اسعد داغر ، دار الاندلس (بيروت ١٩٩٦م)
- مسكويه : احمد بن محمد (ت ٤٢١ هـ/ ١٠٣٠م) :
تجارب الأمم ، تحقيق ابو القاسم امامي ، دار سروش ،ط٢ (طهران ٢٠٠١ م)

المراجع العربية

- جمال حسين نصار :
الخطاب القرآني المعاصر ، دار الاسراء (عمان ٢٠٠٢ م)
- عبد الحميد صديقي :
تفسير التاريخ ، ترجمة كاظم الجوادي ، دار القلم ط٤ (الكويت ١٩٨٠م)
- عزيز العظمة :
الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية ، دار الطليعة (بيروت ١٩٨٣ م)
- عبد العزيز الدوري وآخرون :
تفسير التاريخ ، مطبعة الارشاد (بغداد د. ت)
- عبد الكريم زيدان :
السنن الالهية في الأمم والجماعات والافراد والشريعة الاسلامية ، دار احسان (طهران ١٩٩٣م)
- علي محمد البجاوي وآخرون :
قصص القرآن ، المكتبة العصرية (بيروت ٢٠٠٧ م)
- مجموعة من الباحثين : الدين في التصورات الإسلامية المسيحية ، دار المعارف الحكمية ، بيروت
- محمد اسد :
الاسلام على مفترق الطرق ، ترجمة عمر فروخ دار العلم للملايين ط ٩ (بيروت ١٩٧٧ م)
- محمد حسين فضل الله :
الحوار في القرآن الكريم ، دار الملاك (بيروت ٢٠٠١ م)
- محمد شحرور :
الكتاب والقرآن رؤية جديدة ، دار الساقي (بيروت ٢٠١١م)

المراجع المترجمة

- اجنتس جولد تسهر :
مذاهب التفسير الاسلامي ، ترجمة عبد الحليم النجار ، مكتبة الخانجي ومكتبة المثنى (مصر ، بغداد ١٩٥٥ م)
- برنارد لويس :
ازمة الاسلام المعاصر ، ترجمة حازم مالك محسن ، دار صفحات (دمشق ٢٠١٣ م)
- بلاشير :
القرآن ،نزوله ، تدوينه ، ترجمته وتأثيره ، ترجمة رضا سعادة ، دار الكتاب اللبناني (بيروت لا ت)
- جوستاف لوبون :
فلسفة التاريخ ، ترجمة عادل زعيتر ، دار العالم العربي (القاهرة ٢٠١٢ م)
- تيودور نولدكه :
تاريخ القرآن ، ترجمة ، جورج ثامر وآخرين ، منشورات مكتبة الجمل (المانيا ، بغداد ٢٠٠٨ م)
- ويد جيري :
المذاهب الكبرى في التاريخ من كونفوشيوس إلى توينبي ، ترجمة ، ذوقان قرطوط ، دار العلم (بيروت ١٩٧٢ م)